إبراهيم أصلان

حكايات من فضل الله عثمان

قصص



دار الشروق

إبراهيم أصلان

حكايات
من فضل الله عثمان

دار الشروق

حكايات
من فضل الله عثمان

طبعة الشروق الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

مدخـــل

فى أول فضل الله عثمان، على ناصيته اليمنى وأنت داخل، يجلس رجلان فى رقعة من شمس الشتاء. واحد على طرف الدكة الرطبة يرتدى سترة بسوستة من القماش الصناعى ويدير وجهه ناحية دكان مقفول. والآخر يرتدى بلوفر صوف بأزرار ويجلس على مقعد معدنى فى مواجهة الطرف الخالى من الدكة الرطبة. إنه يدخن ويرى الأرض الموحلة التى تباعدت فيها برك المياه الصغيرة.

صاحب السترة يقول بهدوء:

«وبعدين جبت لها بوتاجاز خمسة فرن، قالت لأ، أنا عاوزاه ستة».

يقول إنه عمل ما عليه ودفع العربون، إذا جاء أبو ستة يكون من حظها، وإذا لم يحدث:

«يبقى آدى الله وآدى حكمته».

الآخر يتساءل، بنفس القدر من الهدوء:

«فيه بوتاجاز فى الدنيا، بستة فرن؟»

«تقول إيه بقى؟، دلع بنات فارغ، رفضت أبو خمسة، وعاوزاه بستة».

«خمسة إيه وستة إيه؟ أى بوتاجاز فى الدنيا، له فرن واحد».

صاحب السترة يعتدل قليلاً .

الآخر يواصل :

«ممكن الواحد يقول خمسة شعلة ، ستة شعلة ، كل ده جايز ، إنما ستة فرن؟ إيه ستة فرن دى؟»

صاحب السترة يستغرق فى التفكير . يقول :

«الله ، مش جايز تكون غلطة؟»

ثم يضيف :

«ثم إيه اللى حصل إيه يعنى؟»

«حصل انك من ساعة ما قعدنا ، وانت عمال تقول كلام غريب» ، ويقوم واقفًا .

«وبعدين يا أخى إذا كان اللى بيتكلم مجنون ، يبقى اللى بيستمع لازم يكون عاقل» .

يجذب البلوفر الصوفى إلى أسفل :

«حاجة تقرف» .

يخطو حذرًا على الأرض الزلقة .

ويغيب فى فضل الله عثمان .

مشــوار

فى عتمة حجرة أرضية مغلقة، يستند ولد بجسده على حافة الكنبة ويربت بيده على صدر امرأة نائمة.

يقول:

«ماما. ماما. ماما».

المرأة الشابة تفتح عينيها وتتطلع إلى الوجه القريب. تمد يدها وتتحسس مؤخرته جيداً. كانت جافة. حينئذ تربت بيدها على شعره الخفيف المنكوش. تبتسم له وهى تغمض عينيها.

تنام.

الولد يدس إصبعه فى فتحه أنفها:

«ماما. ماما».

تخلص المرأة وجهها وتميل تحمله من تحت إبطه وهى راقدة.

يقاوم بثنى ركبتيه:

«لأ ماما. لأ. فول».

«فول؟»

«آه. فول».

«بتاع الفول لسه نايم. روح العب بالعلبة لغاية ما يفتح».

يستلقى الولد على ظهره. يدحرج نفسه حتى يصل المساحة العارية عند مدخل الحجرة المقفول.

يدق رأسه بالأرض ويصرخ باكيًا، دون دموع.

تصيح:

«اخرس خالص».

يسكن الطفل عن الحركة تمامًا.

جسده أطول من البلاطات الثلاث.

يبكى، فجأة، بدموع.

تجلس على الكنبة وقد باعدت بين ساقيها المكشوفتين.

تتمطى وهى تثنى ذراعيها عاليًا وتدفع بصدرها إلى الأمام.

تزيح الشعر عن جانبى وجهها وتقوم.

تتجه إلى الطاولة المعدنية فى ركن الحجرة بينما ينقلب هو على بطنه يتابعها بعينيه وقد كف عن البكاء.

تبحث على سطح التليفزيون وهى ترفع زجاجة القطرة وتعيدها إلى مكانها.

تتجه إلى قاعدة النافذة وترفع الجريدة المطوية. تتناول الورقة ذات الخمسين قرشًا.

تلقط سترة بيجامة رجالى.

ترتديها.

يسرع هو بالوقوف معتمدًا على يديه وقدميه، يحتضن ساقيها:

«أشيلك ماما . أشيلك» .

تتطلع إلى الوجه الذى بللته الدموع . تحمله وتمسح وجهه بكفها وتقبله فى فمه .

تخرج إلى فضل الله عثمان .

إنه يتكئ على كتفها وقد أدار وجهه كله إلى الأمام . يرى الرجل الذى يرش الطوب الأحمر بماء الخرطوم :

«عمو؟ . ماما . عمو؟»

تقول :

«أيوه . عمو» .

«ميه؟»

لا ترد .

«خطوم؟»

«أيوه . خرطوم» .

«أشرب ماما . أشرب» .

«لما نروّح» .

تخرج إلى نهاية الشارع حيث المساحة المشمسة وعربات الركوب نصف النقل وغبار الطريق غير الممهد .

تعبر حقل البرسيم المزروع بين مجموعة من البيوت الجديدة .

ينظر الولد ناحية الحقل ويجذب المرأة من خدها :

«أسد ماما؟ أسد؟»

الأم تنظر :

«لأ مش أسد . دى جاموسة» .

«أموسه ماما؟»

«أيوه زفت» .

يلتفت إلى كومة الزبالة المشتعلة أمام المطعم المفتوح :

«نار دى ، نار؟»

«أيوه نار» .

«يح؟»

تمد يدها بنصف الجنيه وتطلب شقة من الفول :

«من غير شطة والنبى» .

ينظر الولد إلى البائع عند القدرة :

«عمو؟»

«اسكت» .

«عمو دى؟»

تصفعه بيدها على فخذه العارى .

تتناول نصف الرغيف الملفوف فى الورقة .

تعود إلى البيت .

تنزله وتغلق الباب .

تفتح الورقة وتقسم نصف الرغيف إلى ربعين .

يسرع هو بالجلوس ويربع ساقيه القصيرتين .

تناوله ربع الرغيف. يأخذه وينظر إلى الربع الآخر الذى فى يدها:

«هات ماما. هات».

تتطلع إليه باسمة. تنحنى وتضعه إلى جواره.

يسحبه تحت ركبته المثنية.

خبأه وقال:

«قطه كلتها. قطه كلتها ماما».

لعقت أصابعها وقالت:

«طيب».

«خطوم بقى».

«اتفضل الخرطوم».

«علبة. علبة دى».

«وآدى العلبة».

«أغط».

تدفع الغطاء المعدنى المنقوش بقدمها العارية.

يقربه من العلبة ويرفع ركبته المثنية.

يرى ربع الرغيف الذى خبأه. يتناول حبة الفول التى انحدرت على الورقة المفتوحة ويعيد ركبته إلى مكانها.

كانت خلعت سترة البيجامة وانفلت ثديها من حمالة قميصها المقطوع.

يهلل رافعا يده المضمومة على اللقمة:

«بزوز؟»

تقول:

«آه. بزوز».

ويقول:

«زيون بقى. زيون دى».

تتجه المرأة الشابة إلى التليفزيون المستقر على الطاولة المعدنية.

تضغط على المفتاح وتستلقى على الكنبة.

الولد يرفع رأسه محدقًا.

الشاشة تضىء.

تتضح صورة لوجه كبير ملون. وفم يتكلم.

الولد يقول:

«عمو».

ويعاود المضغ. يتفرج،

ويبتسم.

مشهد جانبى

عبد العظيم عمارة رجع من الشغل وهو قرفان، وبعدما تفادى كوم الزبالة متأففًا، هبط إلى حوش البيت، ودفع الباب المردود.

عبد العظيم يرمى الجريدة وهو واقف فى مدخل الصالة الصغيرة شبه المعتمة. ويخلع الحذاء يقذفه من رجله أينما كان، ويقلع البنطلون والقميص ويقعد على الكنبة المنكوشة بالفانلة ذات الطوق الواسع والكتف المقطوع واللباس، ويركن ظهره إلى المسند ويضم شفتيه فيرتفعان ويبدو كمن يشم شاربه القصير الشايب، ثم أنه ينظر إلى الولد عمارة الذى وقف بين ركبتيه العاريتين وقد رفع وجهه الملوث الضاحك.

وصفية تجيء من وراء ستارة المطبخ وتقول:

«إنت جيت إمتى؟»

عبد العظيم لا يرد.

ترى الهدوم المرمية وتقول:

«يا شيخ قلبت القصرية على الحصيرة».

وتمد له يديها بالبنت وتلم الهدوم تعلقها فى مقبض باب حجرة النوم من الداخل.

صفية تحمل القصرية وتذهب بها إلى المرحاض وترجع بالطبلية.

عبد العظيم ينظر إلى طبق المحشى وهو يعيد البنت لأمها.

قعد يأكل ناحية اليمين كى لا يدخل الأرز فى ضرسه المخروم ناحية الشمال. ولما يأكل خمسة أصابع من المحشى يشبع وتضايقه رائحة الكرنب ويقوم يدخل المرحاض ويخرج.

إنه يقف فى باب الحجرة الموارب بعقب السيجارة ويطلب من صفية أن لا توقظه من النوم بعد ذلك لأنه لن يذهب إلى الشغل.

وهى تأخذ حفنة أرز من إصبع محشى مفكوك تنفخ فيها وتدسها باردة فى فم الولد عمارة وتقول:

«لازم ادوك أجازة».

«لأ».

«أمال إيه؟»

«خلاص. مش رايح الشغل بعد كده».

تلتفت إليه وأصابعها معلقة بالأرز أمام فم الولد المفتوح.

عبد العظيم يقول:

«يعنى الصبح ما تصحنيش من النوم».

«هو انت حاتفضل نايم لغاية الصبح؟»

«أنام، أصحى، أنا حر».

وصفية تقول:

«هى إيه الخيبه دى؟»

«زى ما بقول لك كده».

ويلقى بعقب السيجارة عند مدخل الشقة المفتوح.

عبد العظيم يدخل ويريد أن يغلق باب الحجرة على نفسه لكن رجل

البنطلون تعاكسه وتخرج وحدها من الباب . عبد العظيم يمسك بالبنطلون والقميص ويهبدهما على الأرض ، ويغلقه .

بعد قليل يطل برأسه على صفية التى تجلس ويقول :

«خلى بالك ، عقب السيجارة مولع ، إياك الواد يدوس عليه ويلسعه ، أنا باقول لك أهه» .

ويغلق البـاب مـرة أخـرى ويتناول القـمـيص والبنطلون من الأرض يعلقهم فى المقبض الألومـونيـوم من الداخل . ويطلع السرير العالى ذى الأعـمدة الطويلة ، وينام على ظهره ويضع ساقًا على ساق ، وينظر إلى السقف ويلعب فى ركبته العارية ويقول :

«أبوكى مرة بنت كلب» .

وصفية التى لم تسمعه تخرج إلى باب البيت وتقف وهى تحمل البنت على كتفها ، ولما تلمح الحاج عبد الفتاح خارجًا من جامع «السنية» تسرع ناحيته وهى تسند البنت بذراعها والولد عمارة يحاول الإمساك بذيلها وهى تمد ولا تمكنه من ذلك أبدًا .

الحاج عبد الفتاح يسمعها صامتًا وهو يخفض بصره إلى أرض الشارع ، ثم يسبقها إلى البيت ويهبط الحوش صائحًا بصوته الخفيف :

«أبو عمارة ، إنت نمت والا إيه؟»

عبد العظيم يلتفت إلى الباب الذى فتح ، ويرى الحاج أبو سامى وهو يقف بوجهه المحمر وجلبابه القصير الأبيض .

يريد أن يقوم لكى يلبس شيئًا ويدارى ساقيه العاريتين لكن الحاج يقترب بقامته القليلة بحيث أن المراتب تلامس صدره الضيق ، ويقول :

«والله ما انت قايم» .

يضع يده بالمسبحة على كتف عبد العظيم ويجعله ينام كما كان فى الأول .

عبد العظيم ينام وهو محرج .

والحاج يسأله إن كان هناك شىء حدث فى المصلحة .

وعبد العظيم يقول فى أسى :

«أبدًا» .

«أمال إيه الكلام اللى أنا سمعه ده؟»

«كلام إيه؟»

«إنك مش عاوز تروح الشغل» .

«مين اللى قال لك؟»

«أدينى سمعت وخلاص» .

وعبد العظيم يفكر ويقول :

«إن شاء الله» .

«أجازة يعنى؟»

«أنا أجازاتى خلصت» .

«طيب ما هو ده يعتبر انقطاع عن العمل ، بدون إذن أو إخطار» .

«أنا عارف» .

«طيب وبعدين؟»

«يرفدونى» .

«إزاى الكلام ده؟»

«صدقنى يا أبو سامى، أنا عاوز اترفد».

«الله! ومصاريف البيت، والأكل، والعيال؟»

«مصاريف إيه وهباب إيه بس يا ابو سامى؟»

أبو سامى يبتسم فى ما يشبه الورع،

يقول:

«والله يا بنى معاك حق»،

ثم تتلاشى ابتسامته:

«لكن مهما كان، لازم برضه الواحد يروح الشغل».

عبد العظيم يقسم أنه لن يذهب وليحدث ما يحدث،

ويريد أن يقوم لكن الحاج يعود ويقول:

«والله ما انت قايم».

لكن عبد العظيم يقعد، يسحب علبة السجاير من تحت المخدة ويعطيه واحدة يشعلها ويتراجع إلى ناحية الجدار وهو يقول:

«اطلع يا عم اطلع».

والحاج يترك المسبحة تنزلق على ذراعه ويتعلق بيديه فى عمود السرير وينام بصدره على المراتب وهو يبحث برجله اليمنى عن الملة لكى يطلع عليها، لكن السرير يأخذه وينهار فجأة من وسطه، ويلقَى نفسه وقع والمراتب انطوت عليه هى والفرش والمخدات وعبد العظيم من فوقهم

والأعمدة خبطت فى الجدران وكسرت زجاج الشباك. والحاج عبد الفتاح يصرخ من تحت يقول: «يا نهار اسود» لأن السيجارة لسعته فى خده الشمال وكان يظن أن البيت هو الذى وقع. وصفية قفزت بالبنت إلى مدخل الحجرة ورأت الدنيا مقلوبة والحاج عبد الفتاح مازال يصرخ ولا يظهر منه غير ساقيه النظيفتين وهو يرفس بها من تحت المراتب والألواح، وعبد العظيم مزنوق فى الركن بالفانلة واللباس وعمود السرير فى يده وعيناه مثل الدم. صفية صوتت بكل عزمها وهى تدفع الولد عمارة أمامها إلى الشارع وناس اندفعوا داخل البيت بينما يتقدم أحدهم ويشل حركتها ويجعلها تستدير عنوة ناحية الأستاذ عبد الباقى الذى رفع إصبعه أمام أنفها وطلب منها أن لا تصرخ فى وجهه أبداً، وأن تحكى له بهدوء عن ما حدث. وهى تتوقف فوراً عن الحركة وتقول الظاهر إن عبد العظيم، ضرب الحاج عبد الفتاح، أبو سامى، برجل السرير، وأن الحاج، لما عبد العظيم ضربه برجل السرير، وقع، والحاجات كلها وقعت عليه. وصفية التى تواصل الكلام بهدوء لا تستطيع أن تمسك نفسها أكثر من ذلك. وتبدأ ترتجف بين يدى الرجل الذى يقيدها حتى توشك على البكاء وهى تضيف أن عبد العظيم كسر زجاج الشباك، ولا يريد الذهاب إلى الشغل.

مونديال

الأستاذ سيد . . . سعيد بموعد إذاعة مباريات المونديال . يقوم مبكراً بينما زوجته الحاجة رقية التى لا تنام قبل صلاة الفجر مازالت نائمة . لا يغير ثيابه لأنه أصبح على المعاش .

الأستاذ سيد ذهب إلى المطبخ يسلق لنفسه بيضة فى الكنكة الكبيرة .

ينتهى من سلق البيضة ويضع البراد على عين البوتاجاز ويأخذ الكنكة إلى الحوض ويترك الماء يتدفق عليها من الحنفية لكى تبرد . يقشر البيضة التى ما زالت تلسعه ويضعها فى صحن صغير مع بضع حبات من الزيتون الأسود .

يتناول رغيف سن مقبب من كيس البلاستيك المعلق وينقره من أعلى بطرف إصبعه ويعمل فيه ثقبًا . عبر هذا الثقب يصوب كمية من الماء داخل الرغيب ويرجه بقوة حتى يبلل جوفه ثم يقلبه ويفرغه . يلاحظ أن الرغيف شرب معظم الماء كالعادة ولم ينزل من ثقبه إلا القليل . يقلّبه تحت الحنفية بسرعة ليبلله أيضًا من الخارج . يضعه فى صحن آخر صغير ويحمل الصحنين إلى المنضدة المنخفضة فى الصالة أمام التليفزيون .

إنه يتحرك خفيفًا فى لحيته النابتة البيضاء وبنطلون البيجامة والفانلة

نصف الكم ويشعر كأن صحته صارت على ما يرام .

يذهب مرة أخرى إلى المطبخ ويصب الشاى . يحمل الكوب ويعود به يضعه إلى جوار القائمة التى أعدها لتسجيل نتائج المباريات أولا بأول .

يطمئن إلى وجود القلم .

يضع ساقًا على ساق ويهز قدمه فى الشبشب البلاستيك و«الريموت» فى يده .

إنه يتفرج على المباراة ويدخن باستمتاع لأن علبة السجاير مازالت ممتلئة .

عندما تغادر الحاجة رقية حجرة النوم إلى المرحاض يتابع الفرجة دون أن يلتفت . فى ذلك الوقت تكون المراة أم سيد انتهت من كنس طوابق البيت الأربعة من أعلى إلى أسفل . تصعد مرة أخرى وهى تجمع منافض الأقدام وتضعها على سور السلم . إنها تقف الآن أمام باب شقة الأستاذ سيد وهى تمسك بالدلو وتضغط بقوة على جرس الباب المطلى مثل الجدار بالجير الأصفر . ينتفض الأستاذ فى مكانه . يفكر بسرعة أن اليوم هو الثلاثاء موعد المرأة المقرفة أم سيد التى اعتادت أن تضغط الجرس بهذا الشكل . لابد وأنها واقفة أمام الباب تريد الدخول لكى تملأ الدلو بالماء وتمسح السلم . يفتح الباب وهو غاية فى الاستياء . يجدها أمامه بقامتها النحيلة وجلبابها الباهت والدلو البلاستك بين يديها . أم سيد تتساءل بصوتها الرجالى المهذب :

«صباح الخير» .

«أهلاً» .

«الحاجة موجودة؟»

يقول :

«نايمة» .

ويغلق الباب .

يعود للفرجة وهو يفكر بأنها عندما تستدير سوف يكون شيء من جلبابها معلقًا على مؤخرتها السخيفة من الخلف . صحيح أن ذلك يحدث بسبب انحنائها على درجات السلم لكي تكنسه لكن ذلك لا يمنع إن البنى آدم ممكن ، مهما كانت الظروف ، أن يمد يده عندما يقف ويشد هدومه ويعدلها .

أم سيد تقول فى سرها :

«جتك نيله راجل معفن» .

وتتجه إلى الشقة المقابلة وتضغط الجرس .

امرأة شابه تفتح الباب :

«أيوه يا ام سيد» .

«عاوزه ميه» .

«ما انت عارفه ان المتور بتاعنا عطلان» .

أم سيد تعود إلى شقة الأستاذ سيد . تضغط الجرس بنفس القوة .

الأستاذ يفتح الباب وهو يحاول عدم رؤيتها .

تقول ، بنفس الصوت الرجالى المهذب :

«يا ترى الحاجة صحيت؟»

يصيح المذيع الداخلى :

«جووون . الهدف الأول يا جماعة» .

الأستاذ يتمالك نفسه لأنه لم ير الهدف ويمتلىء قلبه بالكراهية لأم سيد والمنديل القديم الذى انحدر عن جبهتها المبللة بالعرق . يفتح باب المرحاض وتخرج منه الحاجة رقية وهى تسحب ثيابها إلى تحت . الأستاذ سيد يشعر بالكراهية نحوها هى الأخرى . يترك كل شىء كما هو ويسرع إلى الحجرة الجانبية ويرد الباب كأنه انصرف من المكان كله . الحاجة تقف تتحدث مع أم سيد وتتناول منها الدلو لكى تملأه بالماء . الأستاذ سيد يخبئ نفسه جيداً ويطل برأسه فقط من فرجة الباب ويرى التليفزيون بصعوبة من الجنب ، يريد أن يلحق إعادة الهدف الذى تم تسجيله فى الشوط الأول من المباراة .

الرجـل والأشـيـاء

فى ظل الشجرة التى نصبت تحتها الأزيار المبلولة، عند الناحية الأخرى من السوق، حيث سور مبنى المجلس المحلى وكشك السجاير والثلاجة، كانت بائعة ليمـون شابة تعبث فى مشنتها. على مقربة منها، كان رجل عجوز يجلس وأمامه مفرش كبير من القطن الثقيل.

كان هذا المفرش مشغولا بخيوط بهت لونها وتجاورت عليه أشياء مختلفة: مقص صغير للأظافر، شريط دانتيلا طويل، طربوش بدون زر، حمالة بنطلون، عدة ملاعق فضية، خرطوم حقنة شرجية بصنبور دقيق، زجاجة فارغة زرقاء، وغيرها.

هذه الأشياء مرتبة بعناية عند الأطراف، أما فى المنتصف، فقد كان هناك سكين قصير له مقبض غليظ من الأبنوس المنحوت، إلى جوار إطار من الخشب المطعم بالأصداف الدقيقة حول صورة عائلية باهتة، وهناك، مبسم سجاير عبارة عن غصن طويل جاف مع ولاعة معدنية فى كيس من قطيفة سوداء، وحافظة نقود من جلد ثعبان تآكلت وانفكت خيوطها وإن بقيت اللمعة العميقة فى جلدها الطبيعى، وتلك المربعات غير المنتظمة، الخفيفة، واضحة مثل خطوط الكف فى ذلك الجلد البنى المحروق.

هذا الرجل العجوز جداً يتطلع من تحت حاجبيه الكثيفين وهو مائل إلى الأمام بجسده الضئيل وقد راح يتحدث مع نفسه بصوت مسموع. الأمر الذى يجعل بائعة الليمون تقترب منه،

تقول:

«إنت بتكلمنى؟»

ينتبه ويغلق فمه الخالى من الأسنان، ويستدير بوجهه إلى ناحية.

تميل برأسها لكى ترى وجهه جيداً:

«هو انت زعلان منى يا عم؟»

لا يرد.

تمد يدها. تتناول شريط الدانتيلا:

«بكام؟»

تقلبه بين يديها:

«الشريط ده بكام؟»

يقول:

«ليه؟»

«عاوزاه، للجلابيه الكحلى».

«خديه».

يقولها مقتضبة.

تلم الشريط وتدخله فى فتحة صدرها.

تمد يدها إلى المشنة وتملأها بحبات الليمون وتفرغها فى حجره .

يظل العجوز صامتًا . يميل يتأمل حبات الليمون ، ويعتدل .

يمر وقت .

العجوز يرفع حاجبيه ويهز لها رأسه أن تقترب . عندما تفعل ، ينزل حاجبيه ويشير بعينيه إلى الكشك الخشبى المجاور :

«إديها للراجل اللى فى الكشك ، وهاتى بدلها سجاير» .

هى تسمعه ، وتقول :

«طيب ما تروح انت» .

يظهر الغضب على وجهه ، ويسكت .

تفكر البائعة قليلا . تتناول حبات الليمون ، وبينما هى تقوم تسقطها فى المشنة .

بعد فترة تعود ومعها سيجارتين .

يمد العجوز يده ويتناول المبسم من بين الأشياء المعروضة وكذلك الولاعة ذات الكيس .

يدخل طرف السيجارة فى فتحة المبسم ويشعلها ويجذب نفسًا طويلا .

ينفث الدخان وهو يعيد الولاعة داخل الكيس ويضعها فى جيب جلبابه العلوى بدلاً من مكانها على المفرش ، وينظر إليها .

تبتسم منه وهى تدارى فمها بطرف طرحتها القديمة السوداء . يبتسم هو الآخر فتضيق عيناه تمامًا وتظهر الخطوط الدقيقة فى وجهه القديم الطيب .

حينئذ تمد يدها إلى الأشياء على المفرش . تتناول الإطار من مكانه . تتفرج وتسأل :

«مين دول؟»

«أنا» .

تقول :

«دول ناس» .

«وانا كمان» .

«فين؟»

يشير بإصبعه إلى الولد الصغير .

تصيح وهى تقرب الصورة من عينيها :

«والنبى؟»

«آه . ودمى أمى . وده أخويا الكبير» .

يضع إصبعه على الطربوش الذى فى الصورة :

«شايفه الطربوش ده؟»

تقول :

«آه» .

يشير إلى الطربوش الذى أمامه :

«هو ده» .

تنقل عينيها بين الطربوش الصغير الباهت الذى فى الصورة، وبين الطربوش الأحمر المترب بين الأشياء.

يقول:

«هو. لكن الزر ضاع».

«واللى قاعد ده، أبوك؟»

«آه».

ويشير إلى السكين:

«صاحب التمثال ده».

تراها وتقول:

«دى سكينة».

«لأ. هى تمثال وسكينة».

«حد منهم عايش؟»

«أنا».

«والباقيين؟»

«كله مات».

«كلهم؟»

«من زمان. لكن الحاجات دى بتاعتهم».

تصمت فترة. تسأل:

«يعنى انت على كده، ما بتشتريش البضاعة اللى بتبيعها؟»

«ماهى بتاعتى أنا كمان».

«علشان انت ورثتهم؟»

يهز دماغه، هزة خفيفة، ويبلل إصبعه أكثر من مرة ويطفىء به عقب السيجارة وهو مازال فى المبسم الخشبى. ينزعه ويلقى به بعيداً. يضع طرف المبسم فى فمه الخالى من الأسنان وينفخ فيه حتى يسلكه جيداً. يضعه فى جيبه مع الولاعة بدلاً من مكانه على المفرش. تشتد الريح قليلا وتهز أوراق الشجرة وتطير بعض الأوراق عن الرصيف. تتوقف عربة الركوب نصف النقل فى الموقف القريب. يهبط ركاب ويصعد آخرون. تترك البائعة الصورة ذات الإطار من يدها وتبدأ تنادى على الليمون. يقترب رجل يحمل تحت إبطه ملف منتفخ بالورق، يتمهل أمام العجوز ويتفرج على الأشياء المعروضة.

ينحنى الرجل ويتناول المقص الصغير يجربه فى طرف الورق ويلقى به.

يتناول الخرطوم ويسد طرفه بإصبعه وينفخ بقوة فى طرفه الآخر ثم يميل. يضعه ويتناول السكين ويمرر إصبعه على النصل القصير ويتفحص مقبضها الغليظ المنحوت:

«بكام؟»

يمد العجوز يده ويستعيد السكين، يتأملها هو الآخر بعناية ويعيدها إلى مكانها بجوار الإطار.

الرجل يميل ويتناولها مرة أخرى.

«بكام السكينة دى؟»

يغمغم العجوز:

«قول».

«أقول إيه؟ قول انت».

العجوز يصمت ولا يرد. الرجل يقول:

«جنيه كويس؟»

تقول البائعة:

«جنيه؟ سكينة أبوه، بجنيه؟»

يضحك الرجل وهو يمد يده فى جيب البنطلون:

«خلاص يا ستى. وكمان بريزة، علشان خاطر أبوه».

يلقى بالنقود فى حجره ويقف يلف السكين فى قطعة من الورق ثم يستدير. يثنى العجوز ساقه ويستند بمرفقه على ركبته. تختفى النقود فى حجر جلبابه المطوى ويظهر طرف سرواله الداخلى على عظمة ساقه النظيفة العارية.

السـوق

غادرت منزل شقيقتي بعد لحظات. وجدت لديها ضيوفًا صائمين،
وتعذر عليّ أن أدخن السيجارة،

أو أشرب كوبًا من الشاي.

مشيت في الشارع الذي كان مسقوفًا بخيوط علقت فيها آلاف من الأعلام الفضية المقصوصة والفوانيس الورقية الملونة. كنت أعرف أنه ينتهي بتلك المنطقة المزدحمة بالأكواخ التي تفصل بينه وبين الساحة التي يقام فيها السوق، حيث يمكنني أن أدخن السيجارة وراء المساكن الشعبية الصفراء، وأشرب من الأزيار المنصوبة تحت الشجرة الوحيدة عند المبنى الحكومي المهجور.

واصلت المشي وأنا أفكر في تلك المقاهي التي أغلقت أبوابها على غير عادتها في ذلك الوقت من كل عام. وبحثت طويلاً في الطرقات الضيقة بين بيوت الخشب وألواح الصاج المسكونة وأنا أميل برأسي تحت حبال الغسيل المنشور حتى خرجت إلى الطريق الآخر.

كان غارقًا في مياه المجاري القائمة التي استقرت فيها بعض الإطارات وأجزاء من هياكل السيارات وأعداد من عبوات البلاستيك الفارغة، ولم تكن السوق قائمة. لم يكن هناك إلا عدد قليل من الباعة الذين تباعدوا في

الأماكن الجافة من الرصيف الذى تطل عليه الواجهات الخلفية للمساكن الشعبية الصفراء.

وقفت هناك ثم رأيت بائعًا وبائعة. كان الرجل يدخن فاتجهت إليه وأنا أخرج السيجارة من جيب قميصى وشعرت بها رخوة فى يدى ومبتلة بسبب مجاورتها لصدرى. سويتها بين أصابعى ووقفت أمامه أتفرج وأنا أعرضها لشمس يوليو الحارقة. لم تكن هناك إلا آلة كاتبة عالية من الآلات القديمة السوداء. وكان البائع يسترخى على الأرض وقدمه العارية بها أصابع قصيرة قاتمة تحت ذيل جلبابه المتسخ ويتكىء بمرفقه على صندوق سفر قديم له سيور جلدية مقطوعة تدلت أطرافها والتصقت على جوانبه مجموعة من البطاقات الأجنبية البالية. ومن هنا، كان بوسعى أن أرى الشجرة الوحيدة أمام المرفق الحكومى المهجور.

اتجهت إلى المرأة التى كانت شابة فى ثياب سوداء وراء كومة من شرائط التسجيل المستعملة ومقابض الأبواب والمفاتيح والأقلام المكسورة والبراويز والنظارات والأحذية ومجموعة من الكتب وانحنيت. كانت كتبًا مدرسية ممزقة وكانت سيجارتى قد جفت إلى الحد الذى يسمح بإشعالها واكتسب جانبها لون التبغ الأصفر الداكن. عدت إلى البائع آخذ سيجارته لكى أشعلها ووجدته كف عن التدخين واسترخى برأسه على ذراعه المطوية وعيناه مغلقتان تمامًا. بحثت عن العقب فى المنطقة المحيطة وأعدت السيجارة إلى جيبى ومررت بالمرأة التى كانت ترانى دون أن ترفع وجهها واتجهت صوب الأزيار التى نصبت تحت الشجرة الوحيدة عند المرفق الحكومى المهجور. رأيت جدرانها الفخارية الجافة وأيقنت أنها خاوية ثم لمحت الكوب المعدنى المربوط فى الغطاء الخشبى المستدير وفكرت أنه ليس معقولا أن لا أجد فى جوف إحداها جرعة واحدة من الماء.

سبيل للصغار

عندما عدت من عملى عصراً ودخلت الشارع شعرت أن شيئًا ما قد حدث. كان الصمت واضحًا والأولاد الذين اعتادوا اللعب والصياح اختفوا وخلت عتبات البيوت من النسوة اللائى اعتدن الجلوس أمامها الأمر الذى جعل الطريق يبدو أكثر وحشة واتساعًا.

تقدمت وأنا أشعر بحركة غير عادية أمام المنزل المجاور لمسكنى، وعندما عبرته رأيت الباب المفتوح على الناحيتين وبعض الأغراب يقفون فى الحوش من الداخل.

صعدت السلالم فى طريقى إلى الشقة وأنا أفكر بأن الجدة العجوز التى اعتادت الجلوس فى الشمس قد توفاها الله. ضغطت الجرس وما إن فتحت لى زوجتى حتى سألتها من باب التأكد وهى قالت إنه:

«الولد أحمد ابن نورا».

كنت أعرف نورا لأن بيتها يجاور بيتنا ولا يفصل بين شقتينا إلا المنور المشترك ولأن صوتها العالى وهى تتشاجر مع زوجها أو عيالها أو تنادى «يا أحمد» كان حاضراً معنا سواء بالليل أو بالنهار، كما كنت أصادفها وهى تجلس على عتبة البيت أو تشترى شيئًا من الباعة الذين يمرون بالشارع وأرى كيف تبدو فى جلبابها الأبيض بزهوره الدقيقة الزرقاء دائمًا بدينة مثل

هضبة بيضاء صغيرة السن فوقها وجه مدور وعينان باسمتان. أما الولد فإننى رغم معرفتى باسمه الذى كان يتردد سواء على لسان أمه أو الأولاد الذين ينادون عليه من الشارع وصوته وهو يرد عليهم أو يسبهم من البلكونة المجاورة لبلكونتنا أو يسير بينهم وهو يحمل طائرة ورقية فى مثل حجمه، فإننى لم أتمكن أبدًا من تذكر ملامحه وإن خايلتنى على نحو ما، وفكرت فى أهمية أن ينتبه الواحد لملامح الناس الذين يعيش بينهم حتى يجنب نفسه مثل هذا الإحساس الذى يتملكنى الآن. ولما سألتها عن عمره قالت:

«بتاع تسع سنين، ولا يمكن عشرة».

وكنت قد خلعت ثيابى عندما سألتها مرة أخرى عن شكله، وهى توقفت فى الطرقة المؤدية إلى المطبخ وسألتنى عن ما أقصد.

قلت:

«أقصد الولد».

«ماله؟»

«شكله إيه؟»

قالت فى استنكار:

«الله! الواد أحمد، ابن نورا».

أخبرتها أننى غير قادر على تذكر ملامحه.

وهى قالت إنه عيل مثل كل العيال.

«كان عيان؟»

ردت فى اقتضاب أنه وقع من السطح:

«كان بيلعب بالطيارة».

وراحت تسب الطائرات ومن اخترعها وهى تضع طبق الملوخية والباذنجان المخلل والرغيف الذى كانت أخرجته من الثلاجة وسخنته على البوتاجاز ووضعته فى كيس البلاستك حتى يحتفظ بحرارته ويظل طريًا.

وقلت:

«لازم أعزى والده».

وهى قالت إنه كان «حايموت» وأن الرجال حملوه من المقهى الذى يملكه لأنه لم يستطع المشى على قدميه وأن الشارع حزن من أجله مع إنه مدمن بانجو وقليل الأدب، خصوصًا عندما قال للضابط أن الولد وقع من بلكونة البيت حتى لا يتسبب فى مشاكل لأم محسن.

لم أفهم معنى هذا الكلام الذى كانت تقوله بطريقتها التى دائمًا ما تصيبنى بالضيق الشديد. ولكننى استطعت أن ألم كلامها على بعضه وأفهم منه أن الولد كان يلعب بالطائرة على سطح بيت الست أم محسن الذى يطل على الخلاء فى مدخل الشارع عندما تراجع بظهره ووقع فى حوش البيت وقلت لها:

«طيب ما تقولى كده من الأول».

قالت إن الشارع كله جرى إلى هناك مع الصراخ وأن أحدًا فى الأول لم يتعرف على الولد بسبب الوقعة والدم لكن نورا:

«قعدت على الأرض وهو فى حجرها».

«ليه؟»

«أصلها عرفته من لون الجلابية» .

«وإيه اللى قعدها؟»

«كانت بتسألنا تعمل إيه» .

ووجـدتنى أرى نورا على الفـور وهى تجلس على الأرض والولد فى حجرها تنظر بعينيها وتسأل الناس عن ما يمكنها الآن أن تفعله وقلت :

«أنا قايم أنام» .

«والأكل؟»

«لما أقوم» .

قالت :

«على العموم العيش برد وزمانه نشف» .

فى المسـاء نظرت من البلكونة ولكنى لم أجد أحـدًا يجلس للعـزاء أمام البيت .

ارتديت ثيابى واتجهت إلى المقهى لكى أعزى والد الولد وجده .

كان المقـهى صـغيـرًا ولا يوجد إلا عدد قليل من الزبائن . لم أجـد جَد الولد ، ولكنى وجدت والده يحـمل الكراسى وأرجلها إلى أعلى ويذهب بها مسرعًا إلى ناحية من المقهى ثم يعود بكراسى أخرى ليضعها فى الناحية المقابلة . كان شابًا وعندما انتبه لوقوفى ظن أننى أتيت كزبون وأحضر لى مقعدًا ولكننى تقدمت منه وشددت على يده وربت على كتفه وانصرفت .

بعد ذلك رأيت الأولاد يحفرون حفرة عميقة فى الجانب الأيمن من مدخل بيت الولد أحمد ويغرسون ماسورة قوية بها مجموعة من أسياخ

الحديد التى امتدت مثل أغصان ينتهى كل منها بحلقة وضع فيها كل ولد قلة من فخار أحمر يقطر منها الماء، وكانت الشجرة الحديدية مطلية كلها باللون البرتقالى المضاد للصدأ. وفى الليل كنت أنتبه فجأة على صوت نورا وهى تصيح بكل قوتها «أحمد». لم تكن تنطقها فى حزن أو فى صيغة النداء، ولكنها كانت تصيح بها كأنها تجيب على أحد يسألها عن اسمه. أما فى النهار فإننى كنت أرى الأولاد يأتون من هنا أو هناك. يغادر الواحد منهم بيته ويتجه إلى الشجرة الحديد يتناول قلة يشرب منها وهو يميل برأسه إلى الوراء، ينظر إلى البلكونة العالية وينصرف.

قطرات من الليمون

عندما لمحته وهو يسبقنى فى فضل الله عثمان تلكأت كى لا ألحقه.

بعد فترة خشيت أننى لو مشيت على مهلى هكذا لغاية آخر الشارع فإنها سوف تكون مسألة ملفتة لنظر من يرانى لأنها ليست طريقتى فى المشى، بينما كان مشيه هو على مهله مسالة طبيعية فى نظر من يراه لأنه صاحب مرض وصحته لا تساعده. لذلك عدت أمشى بطريقة طبيعية حتى حاذيته ورآنى وقال:

«إنت هنا والا إيه؟»

قلت:

«من زمان».

بعد ذلك لم نتكلم حتى وصلنا ناصية الزقاق الضيق.

وقال:

«ما تيجى نشوف عبد الخالق».

«عبد الخالق مين؟»

«عبد الخالق الحانوتى».

«عبد الخالق الحانوتى؟»

«أيوه يا أخى» .

«ليه؟»

«ليه إيه، مش عيان؟»

«لكن أنا ما اعرفوش» .

«إيه الكلام ده؟»

أوضحت له أننى أعرفه طبعًا مثل أى واحد ولكننى لم أتكلم معه أبدًا ولم أدخل بيته قبل الآن .

ابتسم وقال :

«حد قال لك ما تدخلش؟»

وأنا ابتسمت وشعرت بالضيق الشديد لأننى لم أكن أريد رؤية عبد الخالق الحانوتى أو غيره من الناس بل كنت أريد فقط شراء علبة سجاير والجلوس فى المقهى ثم العودة إلى البيت . وحينئذ ربت على كتفى بيده الطرية واستدار وهو يقول :

«تعالى تعالى» .

تبعته إلى الزقاق الذى أمر عليه كل يوم دون أن أدخله .

كان هادئًا وأرضه الترابية مكنوسة وناعمة وصدره مسدودًا بجدار من الطوب الأحمر وبه نافذة وحيدة منخفضة لها إطار من الحجر القديم ومقفولة بقضبان وراءها لوح من الكرتون . وفاجأنى الجذع المقطوع الذى عرفته شجرة فى أيام صباى ونسيته رغم أننى كنت ألمحه من بعيد بين آن وآخر . كان جافًا ومنشورًا بزاوية وفى قلبه سرة بنية مثقوبة ومشققة .

مددت يدى ولمست خشبه العارى وأنا أهبط العتبة المنخفضة إلى البيت الجانبى حيث الطرقة الرطبة ومدخل الشقة المفتوح.

وصاح:

«سلام عليكم».

انتفضت المرأة الجالسة وقالت:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

وتطلعت إلينا حتى هدأت وقالت:

«أهلا يا أستاذ. هاتى الطرحة يا بنت من عندك».

والأستاذ قال بصوت معقول:

«هيه. عامل إيه يا عبد الخالق؟»

وعبد الخالق لم يرد.

كان يستلقى على الكليم المفروش فى أرضية الصالة التى تضيئها لمبة ضعيفة مدلاة من السقف المعتم فى سلك كهربائى مجدول، ويستند بظهره إلى صدر المرأة التى جلست وراءه بجلبابها الأسود وهى تحيطه بساقيها وفى يديها كوب نصف ممتلئ وملعقة. وكانت كومة من الثياب المغسولة ملمومة على الكنبة وإلى جوارها حفنة من المشابك الخشبية. وفوق الكنبة كانت النافذة المقفولة بالوجه الآخر للوح الكرتون الذى سبق ورأيته يسدها من الخارج. كان مما يستخدم كنتيجة للحائط ودفتر الورق الملصق به انتهت أيامه وترك مكانه رقعة مشوهة فى الوجه اللبنى المصقول. وجاءت فتاة شابة بطرحة خفيفة سوداء غطت بها رأس أمها العارى ووقفت تتفرج.

وقال الأستاذ:

«لأ. إنت النهارده أحسن كتير».

والمرأة قالت:

«نحمده. إحنا كنا فين؟»

ودحرجت دماغ عبد الخالق إلى الوراء وملأت الملعقة من الكوب. والأستاذ سألها:

«هو بيشرب إيه؟»

«بيشرب لمون».

وقالت البنت:

«لمون مغلى، وسكر».

نظرت إليها ورأيت عينيها جميلتين فى الكحل البلدى وصدرها أكبر من المعتاد. وهو رآنى وبان عليه الضيق، والتفت إلى المرأة وسألها إن كان عبد الخالق عنده علاج وهى قالت:

«عنده».

وأخبرته أن الدكتور حسن كتب له لبوسًا.

وعندما سألها إن كان يأخذه فى مواعيده قالت إنه يرفض:

«غلبنا معاه، أنا دور، والبنت دور».

كانت تتكلم ويدها مرفوعة فوق وجه عبد الخالق بالملعقة الممتلئة بعصير الليمون، ولاحظت أن المعلقة تميل فى يدها مع الكلام وقطرات الليمون

تسقط على أنفه وشاربه، أما إذا كانت لا تتكلم بل تستمع إلى الأستاذ فإن الملعقة لم تكن تميل بل تهتز قليلا والعصير يتجمع أسفل بطنها المعدنى ويصنع قطرة تنحرف ولا تسقط على أنفه أو شاربه بل تسقط على خده أو على عينه. وكان عبد الخالق فى هذه الأثناء يفتح شفتيه ويحركها هنا وهناك مع حركة الملعقة العالية لكى يتلقى أى قطرة داخل فمه المفتوح ولا ينجح فى ذلك أبدًا. بعد ذلك رأيته يخرج لسانه ويلحس عصير الليمون عن شاربه المبتل ويلعب بشدقيه فى تلذذ واضح، وبينما هو يفعل ذلك التقت عينانا وفهم أننى رأيته فسحب لسانه فوراً وضم شفتيه. وكان الأستاذ يقول:

«أمال اللبوس فين؟»

«بتاع عبد الخالق؟»

«آه».

«ليه؟»

«كنت عاوز أشوفه».

«رجعناه الأجزخانة. أصله بيسيح من الحر».

«والأجزجى، رضى ياخده؟»

قالت البنت:

«أخدنا بدله دوا كحة، للواد مرسى».

التفت إليها مرة أخرى وابتسمت لى بعينيها الجميلتين ابتسامة فى منتهى الأدب ورأيت أن حجم صدرها معقول جدًا وليس كبيراً كما كنت أظن.

والأستاذ رمقنى وطلب من المرأة أن تعطى اللبوس لعبد الخالق فى موعده لأنه كله إلا الدواء. كدت أذكره أن اللبوس ليس موجوداً ولكنه نظر إلى عبد الخالق مباشرة وقال:

«بلاش كلام فارغ. إنت صغير والا إيه».

والمرأة وضعت الكوب إلى جوارها على الكليم وجذبت عبد الخالق من دماغه لأنها تدحرجت وزنقتها بين فخذها المطوى وثديها الكبير، ثم حملت الكوب لكى تملأ الملعقة الخالية.

«على العموم حاول تنام شوية. سلام عليكم».

هكذا قال وهو يتجه إلى باب الشقة المفتوح ويسبقنى.

وعندما قالت البنت وراءنا:

«الله. والشاى؟»

همس لى وهو يميل بوجهه:

«سيبك منها».

وفى الزقاق أخرج المنديل وجفف عينيه.

وعندما خرجنا إلى فضل الله عثمان مشينا بين الناس وسألنى:

«هيه. إيه رأيك؟»

«فى إيه؟»

«حيكون فى إيه يعنى؟ فى عبد الخالق طبعًا».

قلت:

«يعنى . متهيأ لى إنه كويس» .

توقف عن المشى والتفت :

«عبد الخالق ، كويس؟»

«متهيأ لى» .

قال :

«طيب لعلمك بقى ، عبد الخالق الحانوتى بيموت» .

قلت له إننى رأيت عبد الخالق وهو يخرج لسانه ويلحس عصير الليمون عن شاربه :

«ومش معقول واحد يكون بيموت ويعمل حاجة زى دى» .

«لمون إيه؟»

«عصير اللمون اللى كان فى المعلقة» .

«عصير إيه ومعلقة إيه؟ إنت بتتكلم عن إيه؟»

وقبل أن أرد سمعنا صرخة سريعة وهو التفت إلىّ وقال :

«اتفضل . آهو مات» .

ووضع المنديل فى جيبه واتجه إلى هناك .

تبعته قليلا وتوقفت .

استدرت ومشيت مبتعداً وأنا أنظر تحت قدمى ، لكى يظن أى واحد يرانى من الجيران أننى لم أسمع الصرخة ولم أذهب إلى هناك لأننى مشغول بالبحث عن شىء ضاع منى فى فضل الله عثمان .

خيط

النهار فى أوله.

مقاعد متقابلة على جانبى زقاق مكنوس ومسدود بجدار ونافذة مقفولة.

بعض الأولاد يلعبون.

رزق طويل ونحيل ويقف فى مدخل البيت الجانبى إلى جوار جذع شجرة مقطوع فى انتظار بعض الحانوتية من زملاء أبيه. يزعق فى الأولاد الذين يلعبون ويجلسون على الكراسى ويغادرون المكان جريًا.

يعيد ترتيب المقاعد.

أم سيد تدخل الزقاق مسرعة بعد أن باعت أساور أم رزق فى شارع السوق وتقول:

«شد حيلك يا رزق».

رزق يتبعها وهى تجلس على الكليم وتخرج النقود من صدرها تعطيها لأمه التى جففت دموعها مع شقيقته الصغرى وزوجته ونساء فى ثياب سود.

أم رزق تهز رأسها لرزق أن يقترب.

رزق يخطو بينهن ويميل عليها .

تهمس فى أذنه :

«أدخل هات المحفظة من جيب أبوك» .

رزق يتجه إلى الحجرة المغلقة .

يدفع الباب بهدوء ويظل واقفًا .

السرير فى عمق الحجرة المعتمة وأبوه نائم على ظهره .

ضوء خفيف يهبط من الحافة السفلى لنافذة صغيرة عالية على الوجه العارى والشعر الحليق الباهت . جبهته البنية مائلة إلى الوراء وأنفه مسدد إلى أعلى . فمه مفتوح قليلاً تحت شاربه الكث وفكه منحدر إلى أسفل .

يظل رزق واقفًا هكذا ثم يسحب الباب ويتراجع فى طريقه إلى الخارج .

أم رزق تناديه :

«رزق» .

رزق يعود وينحنى بأذنه على فمها :

«أيوه يا امه» .

تهمس :

«باقول لك هات المحفظة من جيب أبوك» .

«عاوزاها دلوقت؟»

«أيوه» .

«الهدوم مش متعلقه ورا الباب» .

«ما هو لابسها يا رزق» .

رزق يهمس :

«شويه كده» .

يتجه ناحية باب الخروج .

أم رزق تنادى :

«واد يا رزق» .

يستدير عائداً .

تقول ، بصوت يسمعه الجميع :

«أدخل هات المحفظة من جيب أبوك علشان أنا عاوزاها» .

«المحفظة؟»

«أيوه . حتلاقيها فى جيب الصديرى» .

رزق يفتح الباب ويدخل الحجرة .

يقترب من الفراش وعينه على صدر أبيه .

يمد أصابعه يزيح طرف فتحة الجلباب البلدى ويرى جيب الصديرى المقلم وحافة المحفظة الجلدية القديمة التى يعرفها .

المحفظة مربوطة بخيط دوبارة فى عروة زرار الصديرى .

رزق يغادر الحجرة ويغلق الباب . أم رزق وبقية النساء يتطلعن إلى يديه الخاليتين .

يقول :

«المحفظة مربوطة» .

تقول :

«قومى يا بنت ناولى أخوكى المقص» .

تزحف البنت على ركبتيها بين النساء .

سمانة ساقها بيضاء تحت حافة جلبابها الأسود .

تتناول المقص من تحت مرتبة الكنبة وتعطيه له .

رزق يتناول المقص بمقبضه المصنوع من البلاستيك الأزرق .

زوجة رزق تقول وهى جالسة فى مكانها :

«آجى معاك يا رزق؟»

رزق يلتفت إليها غاضبًا .

يدفع الباب بهدوء ويتجه إلى أبيه فى عمق الحجرة .

يمد يده من فتحة الجلباب إلى جيب الصديرى .

يهمس :

«لا مؤاخذه يا با» .

يخرج المحفظة .

يحاول أن يقص خيط الدوبارة بالمقص ولكن الخيط يرتخى .

يضع المحفظة على صدر أبيه ويمسك الخيط يشده بيده الأخرى .

العروة المعقود فيها الخيط ترتفع بحافة الصديرى عن صدر أبيه .

كأنه يتنفس .

رزق تأخذه رجفة خفيفة ويقطع الخيط بالمقص ويحمل المحفظة ويخرج .

يتقدم إلى أمه والمحفظة فى يده .

أم رزق تضع المحفظة فى فتحة صدرها وتسكت .

تلاحظ أن خيط الدوبارة مدلى على ثديها الأيسر .

تلم الخيط فى فتحة الصدر مع المحفظة .

رزق يقف قليلا لا ينظر إلى أحد .

يخرج .

يمشى بين صفى الكراسى حتى مدخل الزقاق المفتوح .

ينظر هنا وهناك فى فضل الله عثمان .

يعود .

يجلس عند جذع الشجرة المقطوع .

رزق يرتدى قميص الشغل والبنطلون .

والمقص فى يده .

سفر

بعد العصر بقليل ينتهى رجل عجوز من ترتيب الكنبة التى ينام عليها. يغسل الأكواب ويلم الجرائد والمجلات التى يقضى معظم الوقت يتصفحها ويضعها على حافة المنضدة. يفعل ذلك وهو بالفانلة والسروال البفتة وذراعيه النحيلتين.

يجلس على الكنبة ويرتدى الشراب أولا ثم القميص المعلق والبدلة الكاملة. قبل خروجه يضغط زر التليفزيون ويسحب شيش النافذة ويطفىء نور المكان ويجذب الباب.

ينزل السلم ويخرج إلى الشارع يمشى على مهله حتى يصل إلى موقف عربات الأجرة نصف النقل. يأخذ واحدة متجهة إلى محطة السكة الحديد.

الرجل يجد قطاراً يركبه.

كان قطع تذكرة حتى نهاية الخط وجلس يتفرج على محطات مدن يتوقف فيها القطار أو يتمهل وركاب وباعة يتجولون على الأرصفة ويطلون عليه من النافذة.

يتريث القطار قليلاً عند محطة مهجورة.

يسرع بالنزول.

يقف وحيداً على الرصيف بين مبنى حجرى صغير ودكة خشبية قديمة. يتابع القطار الذى يواصل رحيله ويصير رقعة مائعة سوداء تشف مع الوقت وتتلاشى.

ينحدر حذراً من رصيف المحطة ويعبر القضبان الناعمة الممتدة ويشم رائحة المازوت فى الزلط المبدور بينها. يتقدم فى طريقه إلى مدخل البلدة وهو يبحث بعينيه عن شونة قمح وطاحونة كان صفيرها المتقطع يسكن أذنيه طيلة فترة الأجازة السنوية. ليس هناك شىء. اختفت بيوت الطين وحلت أخرى من طوب أحمر بعضها لم يتم بناؤه بعد. يرى محلاً للأحذية وآخر للحام الإطارات ومجموعة قمصان نسائية ملونة يطيرها الهواء محمولة على شماعات معلقة بماسورة فى واجهة محل له درجات عالية من حجر. وهناك مقهى أمامه مقاعد قش خالية إلا من رجل فى جلباب وطاقية.

يرفع يده قائلاً، دونما صوت:

«سلام عليكم».

يهب الرجل واقفًا ويختفى.

يتقدم فى طريق طويل مترب كأنه يشق البلدة إلى قسمين ويشم الروائح القديمة وتصادفه بقرة يسحبها صبى وهو يبحث عن منحل للعسل وسياج من زهور على الجانب الأيسر من الطريق ومصطبة طويلة مائلة على الجانب الأيمن منه وحجر الطاحونة الوردى القائم عند ناصية الدرب المؤدى إلى دار كبيرة كان جده زرع نخلة فى صحنها. يصل العجوز إلى نهاية البلدة. لا أثر للبحيرة الكبيرة ودغلها الأخضر حيث تسكن طيور الماء. هناك ربوة تعلوها شجرة توت كبيرة حولها رتل من مقابر منحدرة بعضها مطلى بجير واضح فى ضوء الشمس الغاربة. يتمهل العجوز طويلاً ويعود. يقف أمام مقهى ومقاعد قش خالية إلا من رجل فى جلباب:

«سلام عليكم» .

يلم الرجل قدميه تحت المقعد .

يسأل وهو يشير بذراعه إلى المكان القريب :

«مش كان فيه هنا طاحونة؟»

«هنا؟»

«أيوه . والشونة بتاعة القمح؟»

«طول عمر الطاحونة ورا دوار العمدة ، شرق البلد» .

«لكن زمان كانت هنا» .

«لأ . طول عمرها شرقى البلد» .

تمر فترة :

«حضرتك بتدور على حد معين؟»

العجوز لا يرد .

يعبر طريق السفر ويمشى متمهلا على شاطىء ترعة نحيلة غاض ماؤها أسفل الجسر المنحدر .

يبول وهو يتكىء إلى جذع صفصافة مائلة . يصعد رصيف المحطة المهجورة صوب المبنى الحجرى الصغير ويجلس على طرف الدكة الخشبية القديمة . تمر فترة ثم يستلقى على جنبه ويضم ركبتيه إلى صدره ويكون كلام وهسيس بخار وحقول وتكون غفوة ، وتلوح نجمة ثابتة فى أفق غائم تومض وتنطفىء .

حــوار

آخر النهار،

زوج شاب يجلس على حافة الفراش، يرى نفسه فى مرآة الدولاب الباهتة،

ويمر وقت.

تدخل امرأة صغيرة من باب الحجرة المفتوح وقد حملت ثيابًا مغسولة جمعتها من سطح البيت. تلتقى عيناها بعينيه. تتوقف.

يقوم هو يجلس على الكنبة الموضوعة تحت النافذة. تلقى هى الثياب فى المكان الذى كان يشغله. تعزل المشابك الخشبية جانبًا وتبدأ تطوى سترة بيجامته.

يطل هو عبر النافذة المفتوحة إلى فضل الله عثمان الذى غابت شمسه. يسألها إن كان أحد سأل عنه وهو نائم.

تقول إن أحدًا لم يسأل.

تمضى فترة من الصمت.

يتطلع إلى اللمبة المعلقة فى السلك الداكن المجدول ويسألها هل يشعل النور.

تقول:

«ولعه».

يرجع يسألها إذا كان من الأفضل أن ينتظر حتى يطردوا الذباب.

وتقول:

«اللى تشوفه».

يبتسم ويطل مرة أخرى إلى الخارج.

يقول إنها مثل كل مرة،

لم تقل شيئًا.

«إزاى يعنى؟»

«مش أنا سألتك فى الأول أولع النور؟»

«وأنا قلت لك ولعه».

«رجعت بعد كده قلت لك ولا استنى شوية. صح؟»

«طيب ما أنا قلت لك اللى تشوفه».

وتفتح الدولاب.

تبدأ فى رص الملابس التى انتهت من طيها. تغلقه وتقترب منه.

تجلس على الكنبة وهى تبادله الابتسام.

يطفىء سيجارته فى قاعدة النافذة ويلقى بعقبها عبر القضبان.

يقول إن كلامه هذا لا يعنى أنه غاضب مثلاً أو يريد مضايقتها ولكنه يتوقف عند هذا المثال لأن الحقيقة أن:

«اللى تشوفه ليست إجابة»،

وأنها، مادامت وافقت فى الأول أن يشعل النور، لماذا ترجع وتقول:

«إللى تشوفه؟»

تقول هى أنها قالت ذلك لأنه لم يشعله، بعد أن وافقت هى، لكنه رجع سألها سؤالا آخر، فهمت منه أنه يريد الانتظار.

يقول إنه لم يكن يريد الانتظار، بل كان يسألها، وكان عليها أن تؤكد رغبتها مرة أخرى، حتى لو كان هو يريد الانتظار.

ترد عليه بأنها لم تكن ترغب فى شىء.

وتلم قدميها من الأرض وتطوى ساقيها تحتها.

ويمر وقت.

يفرد ذراعه وراءها على مسند الكنبة.

أطراف أصابعه تلامس إبطها الأيسر.

تعتدل قليلا.

لحيته نابتة.

عيناها دامعتان.

أنفه قريب من شعرها.

ذلك صوت

تتجول المرأة الشابة بقامتها الممتلئة داخل الشقة وهى تضع يدها على الجدران واحداً وراء الآخر .

تخفض صوت التليفزيون تمامًا وتطلب من الأولاد أن يصمتوا وتضع كفها مفرودة فى أماكن مختلفة من كل جدار وتتركها هكذا لفترة كافية من الوقت .

الأولاد الذين اعتادوا ما تفعله لا يكفون عن الكلام والجرى هنا أو هناك .

تنتقل هى من جدران الصالة إلى جدران حجرة النوم إلى جدران المطبخ والحمام .

تتجه إلى الحجرة الخارجية وتفعل نفس الشىء . تتأكد أن الصوت لا يوجد إلا فى هذه الحجرة فقط .

شىء ما يزن فى الجدران وتحت قدميها .

تحسه وإن كانت لا تسمعه .

إنها تغطى رأسها وتصعد إلى الطابق الأعلى .

تقف أمام باب شقة شبه مفتوح :

«يا اهل الله يا اللى هنا» .

امرأة نحيلة تجلس على كنبة فى الداخل .

تقول :

«يا اختى ادخلى . هو انت غريبة؟»

تدخل :

«أبو مصطفى هنا؟»

«هنا» .

وتصيح :

«أبو مصطفى . أم أحمد عايزاك» .

أبو مصطفى يأتى متمهلاً من الحجرة الأخرى .

يقف فى فتحة الباب بجلبابه الأبيض ولحيته الطويلة السوداء :

«اتفضلى؟»

«والنبى وانت نازل ، ابقى عدى علينا» .

«خير؟»

«فيه حاجة كده فى الشقة ، كنت عاوزاك تشوفها» .

«حاضر» .

المرأة النحيلة تقول :

«طيب ريّحى من السلم» .

«معلش. العيال لوحدهم».

تنزل.

أبو مصطفى يظل واقفًا وعلى هيئته ما يشبه الإرهاق.

يعود إلى الداخل مرة أخرى ويجلس على الكنبة أمام المروحة.

أبو مصطفى فى منتصف العمر، لكن السكر الذى عنده أصاب جسده الممتلىء بالهزال وجعله يصعد السلم على دفعات تتخللها فترات راحة بسبب الآلام التى تصيب قدميه. هو يريد دائمًا أن يضبط هذا السكر، ولكنه لا يسمع نصائح نسيبه المريض هو الآخر بالسكر، بل يأكل العيش البلدى والبطاطس، وإذا عثر على قطعة لحم سمينة يأكلها مع الأرز الذى تطبخه زوجته بالسمن البقرى، وينوى بعد ذلك أن يحترس. ولما وقعت أسنانه تضايق من شكله وأطلق لحيته وخبأ بها ما حدث.

أبو مصطفى أثناء نزوله خبط على باب أم أحمد.

أم أحمد تقول:

«مش عارفه. فيه حاجة غريبة بتزن فى الحيطة».

أبو مصطفى يضع يده على الجدار تحت عداد النور».

بعد فترة، يلصق أذنه بنفس الجدار.

يقول إنه لا يسمع شيئًا.

تخبره أن الصوت غير موجود هنا، ولا فى حجرة النوم، ولا فى الحمام، ولا فى المطبخ:

«هو موجود فى أوضة الجلوس».

تسبقه تدفع الباب وتتراجع.

يدخل.

تمد يدها تضغط زر النور وتظل بالخارج.

تقول:

«حتلاقيه فى الحيطان كلها، وفى الأرض».

أبو مصطفى يميل على مقاعد الطاقم الأسيوطى ويضع كفه على الجدار لفترة من الوقت.

ينتقل إلى بقية الجدران ويفعل نفس الشىء.

تسأله:

«حسيت بيه؟»

أبو مصطفى يقول:

«هو فيه حاجة كده عامله زى الخلاط».

«بالظبط. وفى الأرض واضح قوى».

يقف حائرًا بين الجدران.

عندما يجدها ابتعدت يجلس على الكليم فى منتصف الحجرة.

يركز تمامًا.

لا يمر وقت حتى يستشعر الصوت الذى يزن فى مؤخرته.

يحس به وهو يصعد إلى عاموده الفقرى وأذنيه.

يتأكد من ذلك ويقوم واقفًا بصعوبة قبل أن تعود .

يخرج إلى الصالة بينما تكون هى آتية من المطبخ .

يرتدى الشبشب ويخبرها أن الصوت الذى تسمعه هو صوت مروحة سقف :

«شغالة فى القوضة اللى تحتكم» .

تقول إنهم فى المصيف .

«أبو علاء ، فى المصيف؟»

«آه» .

«لازم بقى نسيوها شغالة» .

تقول إنها نزلت قبل ذلك وسألتهم ، وأن الحجرة ليس بها مروحة .

«سألتيهم إمتى؟»

«من زمان» .

«ليه؟ هو الصوت ده بقى له قد إيه» .

«بقى له حوالى سنة» .

«يا سلام؟»

«آهو ، أكتر شوية ، أقل شوية . فى الحدود يعنى» .

أبو مصطفى يظل واقفًا على باب الشقة .

يتجه إلى السلم وهو يلم ذيل الجلباب :

«على العموم ربنا يسهل، ونشوف إيه الحكاية».

يتجه إلى المقهى القريب ويجلس فى الخارج.

يطلب كوبًا من الشاى مع ملعقة واحدة من السكر. ويشعل سيجارة.

يقوم عبد الفتاح من مكانه وهو يحمل ما تبقى من كوب الشاى وينضم إليه.

عبد الفتاح يقول:

«إيه يا أخى الحر ده؟»

أبو مصطفى يقول:

«يا سيدى».

ويقلب الشاى ويضيف أن الحر مقدور عليه. الواحد يأخذ دشًا، يشرب حاجة باردة، يقلع هدومه، يعنى لها حل والسلام. الدور والباقى على المشاكل التى لا حل لها. يقول إنه، مثلا، اكتشف فى البيت حجرة جدرانها لا تكف عن الزن طول الليل والنهار. البيت كله سليم وهذه الحجرة هى الوحيدة التى تزن.

«بتزن إزاى يعنى؟»

«زى ما تكون مركب فيها موتور».

«يعنى بتتهز والا إيه؟»

«لأ. بتزن بس».

«الله. بدون سبب».

«بدون أى سبب» .

«فى شقتك؟»

أبو مصطفى يلتفت وفى عينيه المجهدتين انتباه مفاجىء :

«تصدق نسيت؟ ما جاش فى بالى أدور عندى» .

«أمال اللى بيزن ده فين؟»

«عند الوليه أم أحمد . اللى تحتنا» .

«أنهى قوضة بقى؟»

«القوضة اللى على الشارع على طول» .

«يا نهار أسود» .

«زى ما باقول لك كده» .

عبد الفتاح يطفىء السيجارة .

يقول :

«أنت قاعد؟»

«شوية» .

«طيب أنا مشوار صغير وراجع على طول» .

عبد الفتاح يمشى بطريقة عادية حتى ينحرف إلى الحارة ، يمد ويدخل من باب البيت ويسرع بصعود السلم وحجر الجلباب ملموم فى يده .

فى الطابق الثانى يقف أمام الباب الخشب ويضع يده على الجدار .

ينصف وهو يلهث .

يخبط على باب الشقة وعندما تفتح له البنت الصغيرة يبعدها عن طريقه ويلتفت إلى جدار الصالة ويضع يده تحت عداد النور فترة قصيرة .

يقول :

«أمك فين يابنت؟»

تقول البنت :

«إيدك مالها يا بابا؟»

يسرع إلى التليفزيون يغلقه :

«إيدى إيه وزفت إيه الله يخرب بيوتكم» .

يلصق أذنه بالجدار المقابل وهو يغمض عينيه ويركز .

يتراجع فجأة ويصيح :

«أمك فين يا بنت الكلب» .

البنت تتراجع هى الأخرى وتنظر .

عبد الفتاح يتركها ويندفع إلى الحجرة التى تطل على الشارع .

يفتحها ويدخل .

ليــل

يغادر فضل الله عثمان ويجلس أعلى الشاطىء المنحدر ويشعل سيجارة.

إنه يفكر فى ماء النهر وفى أى معنى أن يعود إلى البيت ويجد شقيقته المتزوجة تغسل ثيابه ويدخل حجرته يجلس على الكنبة وأى معنى أن يجد ما يقوله أو لا يجد. تظن ابنة شقيقته الطفلة أن عنده ثديا مثل ماما وتطلب منه أن يخرجه فيعتذر ويلاحظ أنه فى الأربعين ويرى ذلك كالرجل الذى نام واستيقظ ليجد نفسه فى بلاد غريبة ويطفىء سيجارته ويوقف ذهنه تمامًا عن التفكير. إنها عادته التى يمارسها من وقت لآخر حيث يتوقف تمامًا عن التفكير حتى يصبح أخف من ذى قبل، ويروح يسبح راضيًا فى حال كامل من العدم، لكنه لا يستطيع فى كل الأحوال إلا إذا أمكنه التغلب على عينيه لأن الإنسان ينشغل من خلالها ولأنه فى هذه المرة كان مضطرًا إلى تجاهل صوت الغسالة وتثبيت عينيه على وجه الطفلة التى كانت تضحك وتجرى أمامه وهو جاهد فى صمت وفكر أنه وفق فى ذلك. وعندما يفكر أنه فكر أنه وفق فى ذلك يدرك أن ذهنه ليس متوقفًا تمامًا عن التفكير، وينام على ظهره ويفرد ذراعيه بطوليهما على قاذورات الشاطىء المنحدر، ويمر بالصالة ويخبر شقيقته المتزوجة أنه سيعود قبل أن تعود هى إلى بيت زوجها وهى تودعه، لأنها كانت تعرف أنه سيعود متأخرًا ولن يراها قبل أن تعود إلى بيت زوجها، وكان يعرف أنها تعرف أنه يعرف. وانحدر إلى ماء النهر وثبت عينيه فى العتمة العميقة وبدأ يمارس هوايته.

رجـــل

يغادر المنزل صباحًا فى طريقه إلى العمل .

محسن يتجه إلى الميدان الصغير بين المساكن الشعبية حيث ملتقى الطرق وموقف عربات الأجرة فى انتظار عربة يجد فيها مكانًا خاليًا .

إنه الصباح والميدان مزدحم بالناس الذين يسعون إلى هنا وهناك .

يشعل سيـجارة ويلفت انتباهه ذلك الرجل النحيل الذى يعبر الميدان على مهله ، وهو يفتح الجريدة على امتداد ذراعيه يمشى يقرأ فيها دون أن يرى أمامه . يتبعه بعينيه وهو يقترب من قلب الميدان حيث عامود الإنارة الحـديدى الذى ينتـصب فى نهـاية الرصـيف الضـيق الذى يفـصل بين الاتجاهين . محسن يفكر أن قدم الرجل سوف تصطدم بحافة الرصيف إلا أنه يرفع هذه القدم ويصعد . يراه يقف الآن تحت عامود الإنـارة وينحنى . الرجل يختفى ولا يستطيع أن يراه جيدًا بسبب حركة الناس والعربات التى لا تنتهى .

يسرع بمغادرة مكانه والوقف على الرصيف الآخر أمامه مباشرة ويراه فـرد الجريدة وسـواها بطولها على الرصـيف الضـيق وجلس يخلع حـذاءه ويضربه فى بعضه لكى ينفضه جيدًا وقد ثنى ركبتيه ورفع قدميه بالجوارب عن أرض الطريق . الرجل يستـدير على مـؤخرته وهو مـازال يرفع قدميه

ويضع فردتى الحذاء عند قاعدة العامود. إنه يستند على مرفقيه ويسحب جسده إلى أسفل وينام بظهره على الجريدة المفروشة وقد استقرت رأسه على الحذاء.

محسن ينتظر لفترة من الوقت ثم يعبر الطريق من نقطة بعيدة عن الميدان ويعود بمحاذاة الرصيف الذى يفصل بين الاتجاهين ويمر بالرجل النائم على ظهره بالقميص والبنطلون وقد شبك ذراعيه على صدره. إنه مغمض العينين ويتمتم بصوت خافت بينما يستمر محسن فى طريقه حتى يعود إلى مكانه ويشعل سيجارة أخرى ويراقب العامود والناس الذين يمشون من حوله. تمر فترة أخرى من الوقت ثم ينتبه لواحد يقف ولا يتحرك عند رأس الرجل النائم. هناك آخر، إحساسه يقول له إن الرجل سوف يجلس فجأة يرتدى حذاءه ويلم الجريدة وينصرف. كهل بجلباب يغادر المساكن الشعبية وهو يحمل ملاءة قطنية خفيفة يفردها على الرجل كله ويرفع يديه فيما يشبه الدعاء ويعود. يلاحظ أن البعض يتلكأ أثناء سيره والبعض يتفادى المكان تمامًا. يظل واقفا والحركة فى الشوارع المحيطة والميدان كما هى باستثناء الدائرة حول عامود الإنارة الحديدى التى صارت خالية إلا من الجسد المغطى بالملاءة القطنية الخفيفة. محسن يعود إلى البيت.

شتاء

كان الوقت ليلاً، وامرأة تجوب الطرقات الموحلة وهى تضم الملاءة الحريرية السوداء على جسدها الفارع الممتلىء، لا يظهر منها إلا خدها الناصع، وعينها الكبيرة المائلة.

تظل تمشى حتى تلمح النور الخفيف الذى ينحدر من الدكان البعيد، والرجل الذى يجلس على دكته الخشبية عند المدخل الجانبى المفتوح.

ذلك هو الفحام الذى راقبته طويلا، وعرفت أنه هكذا يقضى ليالى الشتاء فى انتظار صبيان المقاهى الذين يأتون قبل نهاية الليل لاستلام وجبة الصباح من الفحم البلدى الثقيل.

إنه يرتدى جلبابه الصوفى المعهود، ويدخن السيجارة وهو يمسكها تحت شاربه الكث، ويكلم نفسه دون أن ينتبه إلى المرأة التى اقتربت، وطلبت قدرًا من الفحم الناعم.

يقوم هو لكى يعد لها القرطاس. تتبعه حتى يجاور الأجولة التى تصنع جدارًا يعزل النصف الخلفى من الدكان. تتناول حفنة من تراب الفحم تنثرها، يشعر الفحام كأن ريحًا هينًا مس رقبته من الجنب، ويلتفت.

تقف أمامه وقد انزلقت ملاءتها، بشعرها المحلول وصدرها العريان.

يراها هكذا بين هباب الجدران ومقاطف الفحم وعتمة المكان. تبسم له

بعينين كسيرتين وهو ساهم. تمد يدها وتمسح له آثار الفحم عن وجهه وفمه بمنديلها القطنى المبلول.

يشم هو الرائحة الغريبة.

يسرى الوهن فى جسده وهو واقف.

قرطاس الفحم بين يديه.

تتناول المرأة القرطاس وتضعه فى كفة الميزان النحاسية المعوجة، تقتاده إلى ما وراء الأجولة المرصوصة.

تجعله يجلس وظهره إلى الجدار.

تترك الملاءة تسقط حول قدميها،

تقترب منه عارية وقد تشوه بطنها اللدن من آثار حرق قديم.

الفحام يرى دون أن يملك القدرة على رفع يد، أو تحريك ساق.

يراها، فيما يشبه الخدر المريح، تجثو أمامه، تحرك شفتيها الممتلئتين بكلمات متمهلة لا يعيها وقد حملت يده الخشنة المسودة بين يديها، المرأة تضغط راحته على نهديها، نهد وراء الآخر، يرى، فى ما يرى، صدرها الشرى وهو يعلو ويهبط بينما هى تتكلم، تعبث بأصابعه، تمرر أطرافها الجافة على جراح بطنها العارية، وقبة عانتها المندملة.

تواصل الكلام.

الفحام يداهمه ما يشبه الندم.

يؤمن بذلك حين يسيل دمعها، ويلوث الكحل خدودها المحمرة،

وهو عاجز.

لما تترك يده تسقط في حجره، تكون هدأت.

غابت في ما يشبه الغيمة. ومر وقت.

تنهض عارية من العتمة بجسدها المضيء.

الملاءة كومة حول قدميها.

تميل عليه تبسم في وجهه،

تلطمه بشدة على صدغه وتميل أكثر.

تحدق في عينيه بوجه مائل كمن ينصت إلى شيء ما، زمنًا، واعتدلت.

رأى طرف الملاءة الحريرية السوداء في يدها.

سحبتها على ظهرها حتى غطت شعرها المحلول،

ولمتها على صدرها العريان.

خبأت نفسها جيداً.

لم يعد ظاهراً منها إلا عينها الكبيرة المائلة،

ابتعدت.

طرف من خبر العائلة

فى المساء، أتردد على المستشفى لزيارة أصغر أشقائى الذكور بعد أن بتروا له سبابة قدمه اليمنى قبل أيام.

وبينما أتوقع كل صباح أن يتصلوا بى ليخبرونى أن الجرح اندمل، حيث يكون علىّ أن أذهب إليه وأعود به إلى بيته، وأخبرتنى كبرى شقيقاتى أنهم سوف يقطعون ساقه إلى ما قبل ركبته بعشرة سنتيمترات تقريبًا، مثلما فعلوا بالمريض الذى يحتل السرير المجاور بنفس العنبر.

شقيقتى قالت إن حضورى هذه المرة ضرورى لكى أوقع معه على الإقرار باعتبارى الأكبر بين أفراد العائلة الآن. وكانت مناسبات عدة حتمت علىّ أن أمارس هذا الدور إلا أن الظروف التى ساهمت فيها كان يمكن أن تتم فى غير وجودى، لذلك تملكنى هذه المرة شعور مختلف لأن المطلوب منى هو الموافقة على بتر ساق أصغر أشقائى، الأمر الذى لا يستطيع غيرى أن يفعله.

وأنا، عندما صعدت إلى الطابق الرابع حيث العنبر المخصص لجراحة أقدام مرضى السكر وجدت هناك زوجة شقيقى المريض وابنتيه الصغيرتين (فى العاشرة والثامنة تقريبا) كما وجدت أن كبرى شقيقاتى قد سبقتنى إلى هناك ومعها شقيقى الأوسط يقفون حوله وهو نائم على فراشه المنكوش وقدمه التى أزيل أحد أصابعها ملفوفة بضمادة كبيرة وقلت:

«عامل إيه دلوقت؟»

وفهمت من نظرة شقيقى الواقف أن علىّ أن لا أتكلم الآن ولاحظت أن ساق المريض فى الفراش المجاور لم يعد باقيًا منها إلا القليل. بعد ذلك غادرت العنبر إلى الاستراحة الخارجية لأدخن وجاء شقيقى الأوسط ورائى وأخبرنى أن هناك حالة تلوث والغرغرينا التى أصابت الإصبع كانت سرحت إلى القدم وأنهم يجهزونه لعملية الغد ويضبطون له السكر وأن البنتين لا تعرفان مسألة بتر الساق لذلك لا يريدنى أن أتحدث أمامهما. كان وقت الزيارة أوشك على الانتهاء فطلبت منه أن يأخذهم وينصرف. وجلست خارج العنبر وطلبت فنجانًا من القهوة فى انتظار الطبيب لكى أوقع له على الإقرار، وكان المرضى يتجولون أمامى على مقاعد متحركة أو يعتمد الواحد منهم على عكازين وكلهم بترت أصابعهم أو أجزاء من سيقانهم. وفى الناحية الأخرى كان أحدهم يبدو عبر باب دورة المياه المفتوح وهو يجلس فى المقعد ذى العجلتين الكبيرتين وقد رفع ساقه السليمة ووضعها فى الحوض الأبيض تحت الصنبور المفتوح وراح يغسلها بيديه المشمرتين ويتوضأ. وعندما انتهى تراجع بالمقعد قليلاً وهو يسحب الساق الكاملة وينزلها إلى المسند السفلى ثم أمسك بالعجلتين وواجه الباب واستمر فى التقدم ومر بى فى طريقه إلى العنبر وساقه المبتورة مسددة أمامه. وممرضة دخلت عند أخى وأنا دخلت وراءها ورأيتها أخرجت من العلبة التى أستخدم مثلها فى البيت شريطًا لقياس نسبة السكر فى البول وأعطته له وقالت إنها سوف تعود وانصرفت. تراجعت أنا حتى يبلل الشريط ثم دخلت ورأيته يمسك به ونسبة السكر عند الدرجة الأولى بلونها الأخضر الفاتح ووقفت إلى جواره فى انتظار الممرضة التى لم تأت ورأيت أن لون الشريط بدأ ينتقل بفعل الوقت من لون إلى لون مما سوف يعطى

قراءة خاطئة فأخذته ومضيت أبحث عنها حتى وجدتها تجلس فى حجرة صغيرة وراء منضدة قديمة من الخشب. كان اللون فى الشريط قد تغير إلى الأزرق القاتم الذى يدل على أن السكر فى أقصى درجاته، لذلك نبهتها إلى أن هذا اللون غير حقيقى وأن نسبة السكر كانت عند أول درجة وأعطيتها الشريط وقلت:

«كان لازم تشوفيه قبل كده».

وهى ألقت نظرة عابرة وألقت به فى سلة مجاورة مع حقن بلاستيك فارغة وقطع قطن ملوثة بالدم. وسألتها:

«أمال الدكتور فين؟»

قالت إن الدكتور فى حجرة العمليات.

«حيتأخر كتير؟»

«والله ساعات بيقعد للفجر».

«طيب وبعدين؟»

«حضرتك عاوزه؟»

«هو اللى عاوزنى».

«ليه؟»

«علشان حكاية الإقرار».

«إقرار إيه؟»

أوضحت لها أنهم طلبوا منى الحضور لكتابة إقرار من أجل العملية

لأننى أكبر أخوة المريض، وهى أخبرتنى أن هذا غير ضرورى وأنهم يكتفون عادة بالإقرار الذى يكتبه المريض نفسه لكن المهم إنك:

«تكون موجود بكره».

«أنا جاى طبعًا».

وأكدت على:

«وقت العملية، علشان تستلم الرِّجل».

«مش واخد بالى، رِجل إيه؟»

«رِجل المريض».

«مالها؟»

«مش حضرتك أخوه الكبير؟»

«أيوه».

«طيب. يبقى أنت اللى حاتستلم رِجله».

«أستلمها ازاى يعنى؟»

«زى كل الناس».

أنا لم أعلق. وهى أضافت موضحة:

«أى مريض بنقطع رِجله لازم حد من أهله يستلمها».

«أستلمها أعمل بيها إيه؟»

«تدفنها».

«أدفنها؟»

«طبعًا».

وقلبت فى ورق الدفتر الذى كان أمامها. كانت سمراء فى مريلة بيضاء وطاقيتها مكوية ومثبتة فى شعرها من الخلف وخصلة منه على جبهتها من الجنب، وأوضحت:

«بعد ما تتغسل وتتكفن طبعًا».

عدت إلى شقيقى فى العنبر وأخبرنى وهو راقد أن التأمين الصحى سوف يركب له ساقًا صناعية بعد ستة أشهر، وأنه فى انتظار ذلك سوف يكون بحاجة لعكازين من الخشب وأنا أخبرته أنهم يعملون هذه الساق بطريقة متقنة جدًا وحدثته عن واحد له ساقين صناعيتين ويمشى بشكل عادى جدًا فى الحذاء والبنطلون، وسألته إن كان يريد شيئًا آخر وطلب أن أترك له سيجارتين يدخنهم بالليل. حجزت لنفسى سيجارة وتركت العلبة وانصرفت.

عدت إلى البيت وجلست وفكرت بأن المشاركة فى حمل جثمان كامل كما حدث قبل ذلك شىء ممكن، لكن مسألة أن الواحد يمشى وهو يحمل رجل بنى آدم أو أى قطعة منه شىء مختلف تمامًا، كما فكرت فى حالة البنتين الصغيرتين عندما يدخل عليهما بساق واحدة وعكازين من الخشب. أثناء ذلك اتصل بى شقيقى الأوسط لكى يطمئن إن كنت التقيت بالدكتور وكتبت الإقرار، وأخبرته أنهم ليسوا بحاجة إليه وسوف يجرون العملية من دونه وقال:

«حتكون موجود طبعًا».

«لأ».

«الله، أمال مين اللى حيستلم الرِّجل».

«الحقيقة ما عنديش فكرة».

«معندكش فكرة؟»

أوضحت له أن مسألة الرِّجل هذه لا علاقة لى بها ولن أستلمها تحت أى ظرف من الظروف وقلت له:

«تصبح على خير».

وأغلقت السماعة.

صباح اليوم التالى اتجهت إلى عملى وظللت هناك حتى اتصلوا بى آخر النهار وأخبرونى أن العملية تمت، وأن الحاج أحمد زوج شقيقتى الراحلة استلم الرِّجل وقام بالواجب. اتجهت إلى هناك ودخلت العنبر ورأيته نائمًا على ظهره وساقه المبتورة مختفية تحت الجلباب وذراعه مثنية على جبهته وأشار لى بعينيه أن أقترب وهمس:

«رِجلى بتوجعنى قوى. عاوز مسكن».

ذهبت إلى الممرضة التى أخبرتنى أن له حقنة واحدة فى اليوم والأفضل أن لا يأخذها إلا عندما يؤلمه الجرح جدًا لكى يدوم المسكن وقتًا أطول. عدت إليه وأخبرته بما قالته وطلبت منه أن يتحمل ساعة أو ساعتين وهو هز رأسه وبدا عليه الاطمئنان، ثم غادرت العنبر إلى الاستراحة وجلست مع زوج شقيقتى الراحلة الذى تطلع إلىّ ضاحكًا بما يعنى أنه عرف مسألة رفضى استلام الرِّجل، وشعرت بالضيق ولكننى لم أهتم. وأخبرنى أن

الموضوع كان بسيطًا جدًا، وأن أول شيء فعله عندما اتصلوا به هو شراء متر ونصف قماش للكفن ثم جاء إلى هنا. فى الأول أخذ تقريرًا من الدكتور وذهب به إلى مكتب الصحة وهناك أعطوه تصريحًا بالدفن.

وقال شقيقى الأوسط:

«يا سلام؟»

«أمال إيه؟ ولازم يتحدد فيه، هل هى الرِّجل اليمين، ولا الرِّجل الشمال».

وقال إنه استلم الرِّجل وقاموا بتغسيلها، وأنا سألته:

«غسلتوها فين بقى؟»

قال إنهم غسلوها فى المشرحة تغسيلا شرعيًا، أى كأنك تقوم بتغسيل إنسان كامل، الفرق الوحيد بين الإنسان عندما يتوفى وبين الرِّجل عندما تُقطع أن الإنسان تقام عليه صلاة الجناز، ولكن الرِّجل لا تقام عليها أى صلاة. بعد ذلك وضعها فى الكفن، أخذ تاكسى من أمام المستشفى وذهب إلى القرافة ودفنوها، كان ينوى دفنها مع شقيقتى ولكن التربى رفض لأن التربة أغلقت قبل أيام ولا يصح فتحها الآن، وقال له أن حظ صاحب الرِّجل من السماء لأنه عثر على مقبرة مدفون فيها أطفال، وابتسم وقال لى:

«تصدق، لما دفناها مع العيال، كانت عاملة زى العيل الصغير بالظبط».

«ودى بتاعة مين؟»

«هى إيه؟»

«التربة».

«حد عارف. آهى تربة والسلام».

وتساءل شقيقى:

«يعنى انت ما تعرفش مكانها؟»

«واعرفه ليه؟ آهى تربة وخلاص».

وعاد شقيقى يسأله:

«الله. هو ينفع إن واحد يندفن فى حته، وتكون رجله مدفونه فى حته تانيه؟»

قال:

«ما ينفعش ليه، هى حتقول لأ؟»

وأضاف أنه، بصراحة، فكر أن يضعوها فى أى ركن ويردموا عليها، لكن التربى خاف أن يأتى كلب ينكش ويأكلها أو يأخذها ويجرى:

«وتبقى مسئولية».

ولما قام واقفًا سألته:

«هو إنت كنت شايلها ازاى؟»

قال:

«فى شنطة بلاستيك».

ورفع يده وراح يهزها كمن يحمل كيساً من مقبضيه، وقال:إنها بسيطة لدرجة أن سائق التاكسى نفسه لم يعرفها:

«كأنك شايل قزازة زيت، أو جوز فراخ».

ودخل إلى العنبر.

صمت

لابد وأننى غـادرت قـبل حين، لأننى كنت أقف على الحـافـة وأرى القـرص الكبـيـر الأصـفـر مـعلقًـا فى أول الـطريق عند الطرف الآخـر من الكوبرى الحـديدى القـاتم، ولأن أسـفلت الشـارع الطويل بدا أكـثـر نعـومـة وتغيرت آلاف الظلال فى أوراق الشجر ولأننى كنت مبتهجًا،

ومجهدًا،

ووحيدًا.

لقد عـبرت نهر الشـارع الخالى حتى انتهيت إلى الـواجهة الزجاجـية المصقولة لأراه أمامى فى ثياب الليل بالوجه الغريب الذى أعرفه والعينين الحزينتين، وأدفن المدية التى بيننا فى صدره بألم ويسر، وأمد يدى إلى ما تحت إبطيه أعاونه، وأراه فى سطحها المعتم المصقول يرفع يديه ليضاهينى ويتهاوى بطيئًا ليريح ظهره ويمد ساقيه، ويضحك ساخراً فجأة ليموت فى ضوء النهار الخفيف الذى يسوق البخار عن وجه النهر يعلو به الشاطىء ويعبر به الطريق ويصعد الرصيف والجدران ويغرقنى، بينما أفتح بابًا فى شرفة صغيرة وأجلس متدثراً وأراه مسجى هناك فى ثياب الموت ونفر من الناس يتحدثون عليه ولا يصلنى الصوت.

هــروب

كان طريقًا هادئًا ولا يوجد أحد غيرى. الأشجار كثيفة وقليلة على رصيفه الأيسر وتحتها بضع عربات مركونة. كنت أمشى وحدى إذن عندما سمعت صوتها الضاحك يقول إنها تريد أن تتحدث حتى نهاية الطريق فقط وتنتظر من يسمعها. عرفت الصوت، ما إن سمعته وقلت إننى خير من يفعل ذلك. حينئذ تركت الرصيف وجاءت من فجوة بين عربتين ومشت إلى جوارى. لاحظت أنها فتاة عادية ترتدى ثوبًا منزليًا فقيراً، وخطر فى بالى أنها ليست جميلة ولكن روحها حلوة وتقول ما تريد. كانت تتكلم وكتفها يلامس كتفى حتى وصلنا آخر الطريق الذى لم يكن طويلاً وصعدنا الدرج حيث سبقتنى ولم أرها أبدًا بعد ذلك. أثناء دخولى سمعت صوت الأم المجهد يرحب بى عبر باب جانبى، ورأيت الرجل ينهض عن الكنبة ليستقبلنى بجلبابه القديم وهو يفتح ذراعيه، والبهجة الممزوجة بشىء من الحرج فى وجهه العجوز الطيب، وشعرت تمامًا كيف أننا نلتقى بعد فراق طويل. أخذنى إلى حجرة أخرى لكى أجلس وخطف الفوطة المرمية على مسند المقعد خبأها وراء ظهره وتراجع ليدخل الرجل الأصغر منه ليصافحنى بابتسامة خجلى ويجلس أمامى يتأملنى فى شىء من اللوم. فكرت أنه تقدم فى العمر وأنه يفكر فى نفس الشىء بالنسبة لى ولم ألحظه وهو يغيب. لاحظت فقط أن بالحجرة بابًا آخر وجدتنى أتجه إليه وأنزل درجًا خلفيًا وأسرع بالابتعاد عن المكان قبل أن يأتى أحد.

شغف

أقبل المساء،

وهبت ريح الشمال،

وانتشرت رائحة المطر،

وبات مقدراً عليّ أن آخذه دون أن يحس بى أحد،

أحمله عبر دروب المدينة والناس نيام،

أهيىء له مكانًا على حافة الشاطىء،

حتى إذا ما هطلت عليه أمطار الليل الكثيفة وارتوى،

عاد إليه جسده القديم ودبت فيه الحياة.

لقد جرى الأمر على نحو أكثر يسراً مما كنت أتوقع.

دخلت من باب الدار المفتوح وقد مضى الليل إلا قليلا.

كانت العجوز تعطينى ظهرها وقد انكبت على القماش والأزرار،

ولما أحست، توقفت يداها دون أن تلتفت.

اتجهت إلى ركنه الداخلى .

كان ضئيلا بين الأشياء ،

لكنى عرفته من عينيه الصافيتين فى العتمة .

حملته إلى صدرى واضعًا يدى تحت مقعدته الجافة ،

واستدرت .

لقد رحلت العجوز .

تركت لى الثوب والأزرار فى مسمار الباب .

حينئذ .

غطيته فى طريقى إلى النهر .

كنت أحسه يتهشم على صدرى ويتساقط بعضه منى .

ضاعفت من جهدى ،

فقد بدأ الرذاذ الدقيق يتساقط ،

يقطر من السحب المنخفضة بطيئًا ويخلف همهمة فى الليل من حولى .

هبطت الشاطىء مسرعًا وأنا أحسه يلين بين يدى .

وضعته .

ضممته إلى نفسه وهيأت له المكان .

مددت له ساقيه الصغيرتين كغصنين،

وتراءت لى بعض الفجوات وشىء ما ليس موجودًا،

وفاحت منه رائحة حارة مثل خبز قديم.

صعدت الشاطىء لاهثًا باحثًا عن ما ضاع منى،

قبل أن يتزايد المطر ويبدأ هو فى معاودة النمو.

ظللت أجرى وأجمع ما تيسر لى.

ولكن المطر انهمر فجأة وتزايد عنفًا حتى ضاعت قدمى فى برك الطريق.

ومع الرعدة المضيئة كف المطر.

انقشع الغيم عن زرقة،

ونجوم.

تركت ما جمعت.

مشيت بيدين خاليتين.

اتجهت إلى هناك وأنا أعول على ما سوف يظنه بى،

حين رأيته أمامى والضوء يرتجف فى الشجر العالى.

كان يعبر نهر الشارع وقد تفتق الثوب عن جسده الطالع.

كان يأتى بطيئًا،

فى يسراه قليل من عشب الشاطىء،

وفى مكان ذراعه الخالية بقية من قماش،

وفى عينيه اللتين أعرفهما،

مزيد من الزهو،

والكبرياء.

شجرة

مع بداية العام الجديد،

رسم شجرة كبيرة خضراء،

على جدار البلكونة المدهونة بالجير الأبيض،

ولما جفت،

جلس تحتها يتفرج.

على فضل الله عثمان.

لم تكن شجرة متقنة،

الأغصان معقولة، والأوراق بقع والحواف سائلة،

والثمار قليلة.

إلا أنها، كمحاولة أولى كانت،

مرضية.

البلكونة ضيقة،

طبعًا،

وهو استعان بيديه ووضع، على نحو أفقى تقريبًا،

ساقًا على ساق.

أى أن ركبته العارية، اليسرى،

كانت تحتك فى خشب الباب المردود،

أما مرفقه الأيمن،

فقد كان يتكىء على سطح السور الحجرى القصير،

والسيجارة المشتعلة بين أصابعه، هناك،

على مقربة من كوب الشاى الزجاجى الساخن.

بدأ يتأمل،

وتلك خصلة جديدة فيه،

ناس يذهبون، وناس يعودون،

أسطح قريبة وبعيدة،

ثياب منشورة وكراكيب،

هوائيات معلقة فى عصى مائلة وأسلاك،

حين أخذته هبة من هواء،

يومئذ،

ألقى بعقب السيجارة،

كمن يلهو،

حين لامست أصابعي حافة الكوب الزجاجي،

ليقع فجأة بما تبقى فيه.

رآه ينفجر شظايا مبعثرة من ضوء تجري في عرض الطريق،

ثم تلتم هناك، مثل شموس صغيرة،

في حضن الرصيف.

ومضى زمن.

مع الطرقة الخفيفة قام واثقًا، وفتح الباب.

كان الصبي يقف الآن ضاحكًا،

بقميصه النظيف الواسع،

وسرواله القديم المربوط.

تناول منه الكوب.

رفعه أمام عينيه في ضوء النهار.

كان صحيحًا، يضوي،

وفيه أثر،

ربما،

من تفل الشاي.

المستحمة

مرة ،

فى فضل الله عثمان ،

مددت يدى بهدوء ، وواربت الباب .

كانت الحجرة معبأة بسحب من بخار ،

ورائحة عطر خفيف دافىء ،

وصابون .

كانت عارية ،

تعطينى ظهرها ،

على كرسى الحموم الواطىء ،

فى طشت بدا مثل فوهة من دخان .

كانت فى جلستها ، تحتض ركبتيها بذراعيها ، وتريح جبهتها فوقها .

رحت أتطلع صامتًا .

كنت أراها من زاوية :

الشعر الكثيف المبتل الذى يغطى أعلى كتفها من هناك ،

يغطى رقبتها من هنا .

وخط الظهر المنحنى قليلا ، الغائر فى منبت عجيزتها ،

يجاوره الضمور الهين أعلى ردفها القريب ،

المشدود ،

مع فخذها المطوى إلى صدرها .

وكان مرفق ذراعها المثنى تحت جبهتها ،

يبدو واضحًا .

وهناك انحدار نحو إبط ، عميق ،

وجانب من ثدى ،

متطاول ،

وصغير .

لم تند عنها طيلة الوقت أية رجفة .

والباب الموارب ،

مع الوقت ،

سرب شيئًا من النور،

والتقطت عيني زهورًا خفيفة من ملاءة الفراش الغائب،

وأشياء أخرى من الدولاب:

حافة نحيلة عالية،

ملأ البخار حفرها المشغولة، OV

ومقابض طافية،

وأدراج؟

ربما.

مرآة التسريحة مطفأة،

ملامح من إطارها البيضاوى،

وأدوات.

مددت يدى بهدوء وسحبت الباب.

رحت أصعد الدرج لكى ألعب مع الأولاد،

ولعبت، حتى أوهننى التعب.

وقفلت راجعًا.

انقضى ما انقضى،

وظل باقيًا فى البال،

حجرة خالية إلا من عرى جميل،

ومرآة منطفئة،

ومسحة من ثدى،

وبخار.

قصص المجموعة

رقم الإيداع ٢٠٢١٩ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1165 - 8

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)

كان طريقًا هادئًا ولا أحد غيرى. الأشجار قليلة وكثيفة على الرصيف الأيسر وتحتها بضع عربات مركونة كنت أمشى وحدى إذن عندما سمعت صوتها الضاحك يقول إنها تريد أن تتحدث حتى نهاية الطريق فقط وتنتظر من يسمعها. عرفت الصوت ما أن سمعته وقلت إننى خير من يفعل ذلك. حينئذ تركت الرصيف وجاءت من فجوة بين عربتين ومشت إلى جوارى. لاحظت أنها فتاة عادية ترتدى ثوبًا منزليًا فقيرًا وخطر فى بالى أنها ليست جميلة ولكن روحها حلوة وتقول ما تريد. كانت تتكلم وكتفها يلامس كتفى حتى وصلنا آخر الطريق الذى لم يكن طويلا. وصعدنا الدرج حيث سبقتنى ولم أرها بعد ذلك أبدًا...

6 221102 014397

دار الشروق